التفاعلات النصية في قصة حي بن يقظان لابن طفيل

أ.عبدالعزيز فضالي
أ.د/ الطيب بودربالة
جامعة باتنة1
fidhali43@gmail.com

تاريخ الاستلام :02/ 10/ 2017 ؛ **تاريخ القبول** : 25/ 11/ 2017؛ **تاريخ النشر**:31/12/2017

ملخص:

تناولت هذه الدراسة ظاهرة التفاعلات النصية في قصة حي بن يقظان لابن طفيل، التي شهدت حضور النص القرآني، والقصص الديني، وبعض الأساطير و الأفكار المتداولة في التراث الفلسفي، ولم يكن حضور هذه النصوص كشواهد نقلية لإثبات قناعات جاهزة، بل كان استحضارها لإثارة تساؤلات بشأنها، بهدف تعضيد الاستدلال النقلي بالاستدلال العقلي الذي يتيح لنا تبني رؤية اعتقادية كونية عن وعي ودراية، لا عن وراثة ورواية.

الكلمات المفتاحية: حي بن يقظان، التفاعل النصي، النص القرآني، القصص الديني، التيارات الفكرية والفلسفية، التفكير الميثلوجي.

Abstract

This study dealt with the phenomenon of textual interactions in IbnTufayl'sHayyIbnYaqzanstory which reflected the presence of Quranic text, religious narratives, some myths and the widely known ideas in the philosophical heritage. The presence of these texts was not a testament to the validity of ready convictions, yet their presence was to raise questions aiming at consolidating the mental evidence which allows us

not tradionally, but consciously and willfully adopt a universal vision of belief.

Key words: Bin Yqazan, textual interaction, Quranic text, religious narratives, intellectual and philosophical currents, and mythological

Résumé

Cette étude a examiné le phénomène des interactions textuelles dansl'histoire de hey Ben Yaqzan, qui a vu la présence du texte coranique, des histoires religieuses, et quelques mythes et des idées qui circulent dans le patrimoine philosophique, n'a pas assisté à ces textes en tant que témoins cités pour prouver les condamnations de prêt, mais était Evocation de soulever des questions sur eux, afin de La consolidation de l'inférence mentale avec le raisonnement mental, qui nous permet d'adopter une vision cognitive globale de la conscience et de la connaissance, et non de l'héritage.

Mots-clés:heye Ben Yaqzan, l'interaction scripturaire, le texte coranique, les récits religieux, les courants intellectuels et philosophiques et la pensée théologiquethinking

أهمية الدراسة:

تتمثل أهمية هذه الدراسة في كونها تتناول متنا قصصيا تراثيا ذا بعد فلسفي صوفي رمزي، يستدعي نصوصا سابقة ويتفاعل معها، لينتج معنى إضافيا بطاقة دلالية متكثفة، ويكتسب أبعادا رمزية وجمالية تعبر عن

مقدرة ابن طفيل الإبداعية في استثمار الموروث السابق كرافدلاكتشاف أصل المعرفة، ولبناء رؤيته الكونية حول الوجود والإنسان والحياة.

إشكاليتها:

تنطلق هذه الدراسة من إشكاليةمحورية تتعلق بتوظيف المضمون الفلسفي في العمل الفني، ثم استدعاء النصوص السابقة لاستشكالها ومن ثم لتشكيل الوعي بها، وعليه تطرح الدراسة بعض التساؤلات لعل أهمها: كيف كانت علاقة الفلسفة بالفن في هذا المتن؟ هل هي علاقة تكامل أم علاقة تدافع؟ هل استدعاء النصوص السابقة هو محض تكرار لمعاني جاهزة مخزنة في الذاكرة، أم أن ابن طفيل تفاعل مع تلك النصوص وحاول تحريرها من نمطية المعنى الجاهز، إلى المعنى الذي يتولد عن أسئلة تستشكل لتحقق الوعي بالمعنى بدل تبنيه في غير وعي؟

مقدمة:

كثيرا ما تنفتح النصوص الأدبية على نصوص سابقة، فتعمل على تمثلها واستيعابها، وإعادة إنتاجهالتصبح قيمة مضافة في النص تمنحه حمولة دلالية وقيمة رمزية، وهذا ما تميزت به قصة حي بن يقظان لابن طفيل التي انفتحت على نصوص سابقة وتفاعلت معها؛ لذلك شهد هذا المتن القصصي حضور النص القرآني والقصص الديني، وبعض المقولات المتداولة في التراث الفلسفي والتيارات الفكرية ... فكان كل منها رافدا يغذي المضمون الفلسفي للنص، كما كان النص بدوره مجالا لاستنطاقها ومحاورتها وإثارة تساؤلات بشأنها لتأسيس الوعي بها بدل تلقفها كمسلمات فكرية أو اعتقادات محنطة جاهزة.

أولا: بوابة النص ورمزيته:

ونعني بها العنوان الذي يختاره المبدع لنصه، لأن العنوان يمثل العتبة الأولى من عتبات النص، فهو يعلن عن قصدية النص ويكشف بنيته، ولهذا الإعلان عن النوايا أهمية خاصة في كشف الخصوصية النصية عند التلقي عبر سياقات نصية تبرز التعالقات التي تربط هذا العنوان بنصه، كما تربط النص بالعنوان"[1].

وكثير من العناوين هي من وحي الذاكرة، وما تراكم من تجارب وأفكار سابقة، يعيد المبدع تشكيلها وتركيبها بحسب ما أوتي من عبقرية الإبداع؛ فإلياذة الجزائر لمفديي زكريا لم يكن عنوانها ناشئا من فراغ بقدر ما يؤكد اطلاع الشاعر على الأدب اليوناني، وتأثره به إلى الحد الذي جعله يستعير العنوان بحرفتيه المعربة – الإلياذة – عن اللغة اللاتينية INIADوهذا ما يعكس لنا تناص شاعر تناصا معماريا.

وكذلك بالنسبة لعنوان ابن طفيل في رسالته القصصية، فإن عنوان (حي بن يقظان) نجد له سبقا في الموروث الأدبي والأسطوري؛ إذ عرفت هذه التسمية من قبل عند ابن سينا صاحب قصة (حي بن يقظان)، وعرفت أسماء أبطال قصته كسلمان وأسال،وشاع تداولها في قصص الأمم والشعوب المجاورة العربية. وهذا على حد تعبير محمد خير البقاعي حينما عد التناص عملا إبداعيا فقال: "وفي التناص أسبقية أيضا، فالنص الجديد إنتاج لنصوص أو أشلاء نصوص معروفة وغير معروفة سابقة أيضا عليه، أو هو خلاصة من النصوص الكائنة في الذاكرة أو القابعة في اللاوعي الفردي أو

[1] حسنمحمدحماد،تداخلالنصوصفيالروايةالعربية،الهيئةالعامةللكتاب،مصر، 1998،ص59

الجمعي وكل إشارة في النص المتناهي تتوجه وتشير وتومئ إلى نص أو نصوص أخرى، ويكون الصوت القديم (النص الغائب) مخبوءا في الصوت الجديد كما يكون الحضور دالا على الغياب، وهذا يوصلنا إلى أن النصوص تتسرب وتتغلغل داخل نص آخر، حتى أنه لا يعود ثمة وجود لنص محايد أو برئ". [2] إلا أن ابن طفيل وظفها وأعاد إدماجها في عمله الأدبي بحسب الرسالة الموكلة لكل شخصية وبالكيفية التي أراد تمريرها، فمنحها رمزيةإحالية مركزة ومختصرة نلمسها في النص لتخلص لنا نصوصا مطولة يكفي الإيماء إليها بعلامة توصل مدلولها، وقد يكون هذا الإيحاء صريحا منطوقا، وقد يرد ضمنيا مسكوتا عنه. وذلك ما نجده مبثوثا في بناء أحداث قصة حي بن يقظان من أول حادثة انطلق منها، إلى آخر كان فيه منتهاه بعودة "حي" إلى جزيرته ليعبد ربه مع صاحبه "أبسال" إلى أن يأتيهما اليقين. وهو انعكاس نصي للآية الكريمة الواردة في القرآن الكريم في قوله تعالى: «واعبد ربك حتى يأتيك اليقين»[3]

ثانيا: التفاعل النصي مع القصص القرآني والقصص الديني:

1. مع القصص القرآني:

استفاد ابن طفيل من الثقافة الدينية التي كانت رائجة في عصره، ويبدو جليا أنه استوعب القصص القرآني فكان أداته المكينة في صناعته أحداث قصته، التي لم تخل من هذا الأثر، ولعل ابن طفيل لم يكن ليهدف

[2] محمدخير البقاعي،(تلقرولانبارتفيالخطابالعربي)،عالمالفكر،سبتمبر 1998،العدد 01

[3] الحجر/ 99

من خلال توظيفه القصص القرآني إلا ليخاطب الجمهور من القراء بما يعلمون، خاصة وأن القصة القرآنية بأساليبها الفنية ومقاصدها الدينية كانت أكثر تداولا، وتأثيرا في إنشاء المعرفة التوحيدية، ولذلك فإن الحادثة في هذه القصة لا تعدو أن تكون سوى استعراضا لحوادث جاء ذكرها في قصص الأنبياء، بل هي انعكاس مطابق لسلوكياتهم وتصرفاتهم؛ فهم بشر لا تكاد حياتهم الخاصة تختلف عن الآخرين، لذلك نجد حياة ابن يقظان مليئة بالسلوكات التعبدية والاستغراق في التأمل وعدم الإسراف في الطعام والاكتفاء بما يقيم الصلب، والميل إلى الخلوة والنظر في الكون وآياته وتلك هي صفات أغلب الأنبياء وخاتم النبيين منهم خاصة.

ولتوضيح ذلك نستعرض ما أورده القرآن الكريم من قصص وإشارات كونية تلخص حياة وسيرة الأنبياء والمرسلين، وتلفت انتباه الناس إلى كثير من الظواهر التي تستحق التدبر، والتأمل وذلك لما فيها من الآيات. وقد استفاد منها ابن طفيل وأحسن توظيفها، فاستلهم منها الحدث تارة وأخذ منها الموضوع تارة أخرى.

أ . قصة خلق آدم عليه السلام:

تستوقفنا الرواية الأولى التي أوردها ابن طفيل عن خلق حي بن يقظان عن طريق التولد الطبيعي في جزيرة من جزائر الهند وهي الجزيرة التي يتولد بها الإنسان من غير أم ولا أب، وبها شجر يثمر نساء وهي التي ذكر المسعودي أنها جزيرة الوقواق؛ لأن تلك الجزيرة أعدل بقاع الأرض هواء وأتمها لشروق النور الأعلى عليها استعداد "[4]

4ابنطفيل،حيبنيقظان،تحقيقوتقديمفاروقسعد،منشوراتدارالآفاقالجديدةبيروت،ط1، 1976،ص 117

وتتفق هذه الجزيرة المثالية البعيدة عن التصور العقلي المألوف مع مثالية الجنة التي خلق فيها آدم عليه السلام من غير أب ولا أم، بل كان ذلك من تدبير حكيم خبير بتركيب الأشياء وإبداعها....وقد جاءت في القرآن الكريم نصوص كثيرة حول خلق آدم عليه السلام نورد منها:

«وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين...» [5]

«وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة. قالوا أتجعل من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إني أعلم مالا تعلمون»[6]

ومهما يكن قول ابن طفيل بالنشأة والتولد الطبيعي الذي يمكن أن يتم إذا توفرت شروطه فإنه ينسب القدرة على الخلق إلى الله سبحانه وتعالى، لذلك فهو يوكل أمر المخلوق حي بن يقظان إلى الله «اللهم إنك خلقت هذا الطفل ولم يكن شيئا مذكورا ورزقته في ظلمات الأحشاء وتكفلت به حتى تم واستوى وأنا قد سلمته إلى لطفك ورجوت له فضلك..."[7]. واللافت في هذه المرحلة من حياة حي بن يقظان أن الكاتب حدد له بداية النشأة في الحياة بمعزل عن تجارب إنسانية سابقة، تلزمه بنمط جاهز من الحياة على مستوى الاعتقاد أو التفكير أو السلوك؛ فابن طفيل أراد أن يتمثل من خلال حي بن

5الحجر /28

6البقرة / 29

7بنطفيل (حيبنيقظان) ص122.

يقظان حياة آدم في بداية الخلق، كي تكون تجربة ماثلة للعيان نستوعبها بالعقل تعضيدا لما وصلنا بالنقل.

ب . آدم والتعلم:

سرد لنا القرآن الكريم حادثة تعليم آدم في حوار رباني ملائكي بعد أن أنبأ الملائكة بخلق بشر من طين، فتعجبت من هذا البشر الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء «وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون»[8].

لكن حكمة الله شاءت أن تعلم آدم أشياء لا تعلمها الملائكة، وهي أسماء الموجودات «وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون»[9].

فحي بن يقظان بحكم العزلة نشأ حياة فطرية، تشبه حياة الملائكة في عالم الملكوت، فكان له من صفاء الروح والذهن ما جعله يرتقي في مقامات المعرفة التي آلت به إلى توحيد الله، لكن هذا المقام لم يمنحه الكمال الذي يغنيه عن نظرائه في الخلق، فكان لزاما عليه أن يتعلم ما كان يجهله في أول تواصل له جمعه بواحد من أبناء البشر (أسال).

8لبقرة/ 29.

والبقرة/32.

فابن طفيل وهو يعرض طريقة تعلم (حي) يحاكي ما جاء في الآيات السابقة؛ ذلك لأن أسال حين اكتشف جهل حي للغة سعى لتعليمه، فعرفه أسماء الأشياء التي يراها من حوله، وتدرج في مخاطبته حتى علمه الكلام وفنونه على اللسان الذي كان يتكلم به أهل الجزيرة التي جاء منها.

جـ . قصـة موسى عليه السلام:

وظف ابن طفيل قصة موسى (عليه السلام) وحادثة التابوت التي اهتدت إليها أم النبي موسى (عليه السلام) بعد أن خافت على وليدها من كيد فرعون الذي كان يذبح الأبناء ويستحيي النساء، خوفا على زوال ملكه، فكان أن قدر الله لهذا المولود أن يتربى في بيت عدوه فرعون وأوحى الله إلى أم موسى أن ترضع ابنها وتضعه في التابوت وتلقي بالتابوت في البحر «وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين، فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا، ... ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين»[10]

وكذلك كان أمر حي بن يقظان حينما جعل ابن طفيل حالته تشبه حالة النبي موسى (عليه السلام) إذ تسرد لنا الرواية الثانية لتولد حي بن يقظان أن ملكا في إحدى الجزر كانت له أخت ذات جمال منع عنها الزواج، لأنه لم يجد لها كفؤا. ثم تزوجها قريب له يسمى يقظان وكان هذا الزواج سرا، فحملت منه، فلما خافت على مولودها من أن يفتضح أمره « وضعته في تابوت أحكمت زمه بعد أن أروته من الرضاع وخرجت به في أول الليل

10البقرة/32.

في جملة خدمها وثقاتها إلى ساحل البحر وقلبها يحترق صبابة به وخوفا عليه ثم أنها ودعت وقالت: « اللهم إنك خلقت هذا الطفل ولم يكن شيئا مذكورا....» [11]ولعل أخاها الملك كان قد بلغ من الطغيان ما بلغه فرعون ولذلك نجد أخته تصفه بالتجبر والعناد فتقول في نص توديعها لابنها على ظهر التابوت «... وأنا قد أسلمته إلى لطفك ورجوت له فضلك خوفا من هذا الملك الغشوم الجبار العنيد فكن له ولا تسلمه يا أرحم الراحمين !» [12]فقد تمثل ابن طفيل قصة النبي موسى في ملمحها العام، مع الاختلاف في بعض التفاصيل التي لا تؤثر على المضمون والمآل المشترك في القصتين، المتمثل أساسا في حرص الأم على إنقاذ وليدها الرضيع من بطش الطاغية، وذلك باختيار أقسى الحلول وأصعبها؛ إذْ تبدو الأمومة في ظاهر الموقف مخالفة للمعهود في غريزة الأم الحريصة على إبقاء وليدها في حضنها، لكن الحقيقة في جوهرها أن الأم أبعدت ولدها عنها كي تبقيه حيا، لكن وهي تبعده أودعته إلى الله، وكلها يقين أن الله سيتولى حفظه بتسخير أسباب تخالف التوقع والمعقول في عرف البشر، فيكون ذلك كرامة للولد المظلوم وإكراما للأم المضحية الواثقة بلطف الله.

والملاحظ أن ابن طفيل تصرف في وقائع القصص القرآني من حيث التعاقب الزمني؛ فنحن نعلم أن آدم يمثل بداية الخلق وموسى جاء من بعده، لكن ابن طفيل ـ ومن أجل بناء الحبكة الفنية ـ استعار لحي بن يقظان

11ابنطفيل(حيبنيقظان) ص 224

12نفسه،ص 224.

قصة موسى الرضيع كي تكون سببا أو مقدمة تسبق تمثل تجربة آدم في تلك الجزيرة المعزولة.

د. موسى والرجل الصالح:

كما استطاع ابن طفيل أن يستفيد من حادثة موسى عليه السلام مع السيد الخضر، الرجل الصالح الذي آتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنه علما، فأراد موسى أن يتبعه ليزيده علما وفوق كل ذي علم عليم (فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما قال له موسى هل اتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا قال إنك لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا قال ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا) [13]

فهذا أسال في مقام الرجل الصالح العارف للأشياء، وهذا حي بن يقظان، المسترشد الذي يريد المعرفة وينشدها يتلازمان ويتصاحبان في رحلة ربانية عرفانية تقودهما إلى جزيرة سلامان فيدعوان ربهما أن ييسر لهما أمر الرحلة، وأن يهديهما إلى سواء السبيل «فالتزما ذلك وابتهلا إلى الله أن يهيئ لهما من أمرهما رشدا»[14] فالمعرفة إذن قد تكون لَدُنَيَّة؛ أي من لدن الله عز وجل، وقد تكون ذاتية بما أودعه الله في الإنسان من نعمة العقل والتفكير والحواس... لكن في كل الأحوال مهما بلغ الإنسان من المراتب والمقامات لا مناص من العلم الحصولي الذي يناله بعض البشر من بعضهم.

13الكهف،من 65إلى 80

14ابنطفيل،(حيبنيقظان) ص 230.

هـ . أصحاب الكهف والظاهرة الطبيعية:

هذه القصة القرآنية كانت أحداثها حاضرة في قصة حي بن يقظان، إذ يحدثنا القرآن الكريم عن الظاهرة الطبيعية التي سخرها الله لتخدم الفتية الذين آمنوا بربهم فزادهم هو أمرهم بالذهاب إلى الكهف الذي هيأه لهم طبيعيا ومناخيا وجعل الحياة فيه صالحة لا يمسهم فيه سوء، ولا يصيبهم فيه رهقا، فالحرارة معتدلة والشمس مسخرة لكهفهم لا تؤذيهم بأشعتها «وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ذلك من آيات الله من يهدي الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا»[15]

ويسوق لنا ابن طفيل الظاهرة بالذات ويجعلها تتكرر في جزيرة الوقواق وبحضرة حي هذا المخلوق الذي جعل حياته خاضعة للأقدار تصنع فيها ما تشاء، وهو بذلك يرمز إلى الحياة الإنسانية جمعاء والتي تتحكم فيها قوى الأقدار، تأخذها إلى «أجمة ملتفة الشجر عذبة التربة مستورة عن الرياح والمطر، محجوبة عن الشمس تزاور عنها إذا طلعت وتميل عنها إذا غربت»[16]

وقد جعل ابن طفيل من حي مخلوقا يُرْمَى في تابوت ثم يقذف في المياه أمانة ترعاها العناية الإلهية التي حفظته من كل سوء ومكروه.

15الكهف 17.

16ابنطفيل، (حيينيقظان) ص 122.

ولعل الاستفادة في هذا الموضع لم تتوقف عند مستوى الحادثة بل طالت مستوى اللغة والأسلوب إلى درجة الاقتباس كما هو جلي في العبارة السالفة الذكر.

والغراب وحادثة الدفن:

بعد أن يئس حي من معرفة الأسباب التي تقف وراء تعطل حركة الظبية، وبعد أن بذل ما بوسعه لعله يعيد إليها حيويتها كما كانت أول مرة، تبين له أن الذي كان يغدق عليه بالعطف والحنان هي قوة خارج هذا الجسد، وما هذا الجسد إلا آلة كان تتستر وراءه وتستخدمه لتحقيق بعض الأغراض، وبالتالي حول حي فكره عن هذا الجسد مفكرا في طريقة التخلص منه.

وهنا يسرد لنا ابن طفيل حادثة الغرابين الذين بعثهما الله ليعلما بني آدم طريقة الدفن للتخلص من جثث الموتى وقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: «واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين لإن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين...

فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين فبعث الله غرابا يبحث في الآرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه قال يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي فأصبح من النادمين»[17]

ولنا الآن أن نرى كيف سيقت هذه الحادثة في هذه القصة، فحي يرى جسدا ميتا ولا يعرف كيف يتصرف معه مثله في ذلك مثل ابن آدم أول

17المائدة،من 27 إلى 31.

مرة وهو يقف أمام جسد إنساني لا حركة فيه فلا يهتدي لفكر الدفن إلا عن طريق الإيحاء الإلهي الذي يعلمهما طريقة الدفن وذلك بواسطة الغرابين يقول ابن طفيل واصفا حالة حي أمام جثة الظبية:

«وفي خلال ذلك نتن ذلك الجسد وقامت منه روائح كريهة، فزادت نفرته عنه، وود أن لا يراه ثم أنه سنح لنظره غرابان يقتتلان حتى صرع أحدهما الآخر ميتا، ثم جعل حي يبحث في الأرض حتى حفر حفرة فوارى فيها ذلك الميت بالتراب فقال في نفسه ما أحسن ما صنع هذا الغراب في مواراة جيفة صاحبه وإن كان قد أساء في قتله إياه وأنا كنت أحق بالإهداء إلى هذا الفعل بأمي ! فحفر حفرة فألقى فيها جسد أمه وحثا عليها التراب»[18]

فحادثة موت الظبية كانت منبها أو صدمة أفرزت لدى حي حالة قلق معرفي؛ حيث أدرك أن موضوع المعرفة لا ينحصر في المحسوسات فقط، وأداة المعرفة ليست هي الحواس فقط، بل في الحياة جوانب معنوية، وأسرار غيبية لا يمكن الوصول إليها عن طريق الحواس، وعليه لا بد من الانتقال إلى مستوى آخر في المعرفة هو مستوى المعرفة العقلية، القائمة على التأمل وإثارة السؤال.

1 . مع القصص الديني:

أ. الرسول وظاهرة الخلوة والاعتزال:

لقد قدم ابن طفيل حي بن يقظان في صورة إنسان يعيش متعة التعبد، وملء الفراغ عن طريق الاعتزال والخلوة طلبا للصفاء الروحي، وقد كانت حياته الروحية كلها تفكيرا في واجب الوجود وهو الله سبحانه وتعالى.

18ابنطفيل، (حيينيقظان) ص 139.

وإن نحن تأملنا هذه الطريقة لوجدناها مستوحاة من حياة الرسول (ص) إذ كان ميالا إلى الاعتزال والتعبد في غار حراء، وقد كانت اللحظات التي يقضيها هناك هي الإرهاصات الأولى للنبوة، وكذلك فعل حي وهو ينشد الصفاء الروحي عن طريق المكوث في المغارة معرضا عن جميع المحسوسات والقوى الجسمانية «وما زال يقتصر على السكون في الواجب الوجود وحده... وغاب فيه مدة طويلة، بحيث تمر عليه عدة أيام لا يتغذى فيها ولا يتحرك»[19]، وفي ذلك سعي إلى التحرر من سلطة الجسد وما يشتهي تحقيقا لمتعة التأمل وما يستدعيه من تساؤلات تحفز على البحث عن أجوبة تفك مستغلقات الوجود والحياة.

بـ . الطـواف والاستـدارة:

كان حي بن يقظان يتفرغ للسياحة من حين لآخر، فيعتمد الطواف والسعي طريقة للتعبد قصر مغارته، مطرقا غاضا بصره، معرضا عن جميع المحسوسات والقوى الجسمانية، مجتمع الهم والفكرة الموجود.

وغالبا ما يلجأ إلى نظام الاستدارة و«التزم مع ذلك ضروب الحركة على الاستدارة، فتارة كان يطوف بالجزيرة ويدور على ساحلها ويسبح بأكنافها وتارة كان يطوف ببيته أو ببعض الكدى أدوارا معدودة؛ إما مشيا وإما هرولة، وتارة يدور على نفسه حتى يغشى عليه»[20]

ولعل هذه لطريقة تشبه تماما طريقة الحجيج في الطواف حول الكعبة استدارة، أو هي تشبه طريقتهم في السعي بين الصفا والمروة مشيا مرة

19نفسه،ص 204.

20ابنطفيل، (حيينيقظان) ص 199.

وهرولة مرة أخرى، والحكمة من ذلك كله هي طلب ونشدان التقرب إلى الله، واستحضار الأحوال الروحية التي تسمو بالإنسان إلى العالم العلوي، ولم تكن الحياة الروحية لحي تختلف عن كل المتقربين والمتعبدين؛ فهي تقوى ثم تضعف وتفتر، وذلك فحسب ما يمرن نفسه عليه من عمل وجهد في التفكير في واجب الوجود، وهو الله سبحانه وتعالى «كان يلازم الفكر في ذلك الموجود الواجب الوجود ثم يقطع علائق المحسوسات ويغمض عينيه ويسد أذنيه ويضرب جهده عن تتبع الخيال ويروم بمبلغ طاقته أن لا يفكر كفي شيء سواه ولا يشرك به أحدا ويستعين في ذلك بالاستدارة على نفسه والاستحثاث فيها»[21] وبهذه الطريقة كانت روحه تصفو فيصل إلى درجة المشاهدة والإشراق النوراني فيشاهد الواجب الوجود لكنه سرعان ما تقاطعه حواسه الجسمية فتشده إلى الحياة الدنيا، وينفلت من يده ذلك الخيط الروحاني "فتفسد عليه حاله وترده إلى أسفل سافلين"[22]. وهو بذلك يعيش طبيعته الإنسانية التي ألهمها الله فجورها وتقواها، ومن ثم لا بد من مجاهدة النفس لتزكيتها والارتقاء بها في مدارج الطهر والصفاء.

جـ . حادثة الإسراء والمعراج:

يستمر ابن طفيل في جعل بطل قصته يصبو نحو الكمال والصفاء الروحي، ليتحرر كلية من أعراض الحياة الدنيا، وسعيا للوصول إلى المشاهدة الفعلية والمعرفة الحقة لله سبحانه وتعالى «وما زال يطلب الفناء عن نفسه والإخلاص في مشاهدة الحق حتى تأتى له ذلكن وغابت عن ذكره

21ينطفيل، (حيينيقظان) ص 199.200.

22نفسه،ص 200.

وفكرة السماوات والأرض وما بينهما وغابت ذاته في جملة تلك الذوات وتلاش الكل واضمحل وصار هباء منثورا ولم يبق إلا الواحد الواجب الوجود وهو يقول بقوله الذي ليس له معنى زائد على ذاته "لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهار" ...واستغرق في حالته هذه وشاهد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[23]

هذا الذي حدث للنبي الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) في حادثة الإسراء والمعراج حيث ظل يرتقي رفقة الملك جبريل (عليه السلام) حتى بلغ به السماء السابعة حيث سدرة المنتهى إذ رأى من آيات ربه الكبرى ما لا يستطاع وصفه وذكره، وقد وصف القرآن الكريم هذه الحادثة في قوله تعالى:

«فأوحى إلى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على ما يرى ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى»[24].

وكما قص الرسول (صلى الله عليه وسلم) الكثير من الأخبار حول ما رأى من أحوال أهل الجنة والنار، فإن ابن طفيل جعل حي بن يقظان يطلع باعتماد طريق الكشف والمشاهدة عن حال السعداء وحال الأشقياء.فيقول عن حال السعداء: «ورأى لذاته وتلك الذوات التي في رتبته من الحسن والبهاء واللذة غير المتناهية ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا

23ينطفيل، (حيينيقظان) ص 199.200.

24النجم،من 10 إلى 18.

خطر على قلب بشر ولا يصفه الواصفون ولا يعقله إلا الواصلون العارفون»[25].

وأما حال الأشقياء فيقول عنها: «وشاهد ذوات كثيرة مفارقة للمادة كأنها مرايا صدئة قد ران عليها الخبث... ورأى لهذه الذوات من القبح والنقص ما لم يقم قط ببباله، ورآها في آلام لا تنقضي وحسرات لا تنمحي قد أحاط بها سرادق من العذاب وأحرقتها نار الحجاب ونشرت بمناشير بين الانزعاج والانجذاب»[26]

ويبدو من هذه الحادثة أن حي بن يقظان انتقل إلى مستوى آخر من المعرفة؛ فبعد المعرفة الحسية التي تلتها المعرفة العقلية بعد موت الظبية، ينتقل إلى المعرفة الباطنية وهي محصلة المجاهدات الشخصية لتحقيق ما يُعرف بالمكاشفة الذي نعني به الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني والحقائق الغيبية.

د . قيام الساعة وأماراتها:

استحوذت الأفكار الدينية على مخيلة ابن طفيل فلم يستطع التخلص منها بالرغم من القفزة النوعية التي حاول من خلالها أن يسمو عن التفكير الموروث لشق طريق منفرد وخوض أهواله، ويحدثنا عن الساعة وقيامها لا يحيد عما ورد في الأثر من علامات وأمارات لها، فتشابه تصوره للآخرة وأهوالها بالذكر القرآني انطلاقا من قوله تعالى:

25ابنطفيل،(حيينيقظان) ص 214.

26نفسه،ص 214.

«يا أيها الناس اتقوا ربكم أنا زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد»[27]

وقوله تعالى: «يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون»[28]

وقوله تعالى في سورة القيامة «أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنانه بل يريد الإنسان ليفجر أمامه يسأل أيان يوم القيامة فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول الإنسان يومئذ أين المفر»[29]

وقد جاء تلخيص هذه المشاهد الجليلة كلها في قول ابن طفيل "وشاهد هنا ذواتا سوى هذه المعذبة تلوح ثم تضمحل، وتنعقد ثم تنحل، فتثبت فيها وأنعم النظر إليها، فرأى هولا عظيما وخطبا جسيما، وخلقا حثيثا، وأحكاما بليغة، وتسوية ونفخا وإنشاء ونسخا"[30]، كل هذه الأشياء كان حي بن يقظان قد رآها وهو غائب عن جسده، متصلا بالعالم العلوي مرتقيا بروحه، إلا أنه ما لبث أن عاد إلى حياته الدنيا بعد أن انقطع عن المشاهدة «فما هو إلا تثبت قليلا، فعادت إليه حواسه، وتنبه من حاله تلك التي كانت شبيهة بالغشي، وزلت قدمه عن ذلك المقام ولاح له العالم المحسوس، وغاب عن العالم الإلهي إذ لم يمكن اجتماعهما في حال واحدة». وبذلك يؤكد ابن طفيل

27الحج، 1-2.

28المعارج، 33-34.

29القيامة،من 3 إلى 13.

30ابنطفيل،(حيبنيقظان) ،ص 215.

أن المكاشفة ليست أمرا تكوينيا ثابتا في العارف، بقدر ما هي حالات نورانية عارضة كنتيجة لمجاهدات سلوكية سابقة، لذلك لا غرو إنْ عاد العارف إلى طبيعته البشرية بعد رحلته الروحية إلى عالم الملكوت.

ثالثا: حي بن يقظان والتيارات الفكرية والفلسفية:

لقد حدثنا ابن طفيل رمزا على طريقة الفن القصصي الذي شاع في عصره، وقد كان الكتاب والفلاسفة يشغفون حبا بمثل هذه الرحلات السياحية المحفوفة بالرموز والعجائب الروحانية، والتي لا يتأتى تأويل أحداثها إلا لذوي القدرة الفائقة في التفكير، والناس في ذلك مراتب، فمنهم من يقف عقله عند الظاهر من الكلام ومنهم من يتلقف ببصيرته عمقه وجوهره وأولئك هم أولو الألباب، وفي ذلك يقول عبد المالك مرتاض: "إن ابن طفيل قصد من وراء قصته إلى إثبات أشياء، كما قصد إلى نفي أشياء سواء، فقد كان يؤثر التصوف على الشريعة الظاهرة، وقد كان يؤثر الفلسفة على مبادئ الدين المعروفة والتي تتسم أحيانا بالسطحية الضيقة حتى تساير عقول العوام، وقد كان يرى أن العزلة للحكيم أولى من المخالطة والمجاورة، لأنهم لا يؤمنون إلا ليكفروا ولا يعاهدون إلا لينقضوا ليس لهم مبدأ على الإطلاق، فإن رأيتهم يصفقون لهذا اليوم، فإنهم سيصفقون لذلك غدا"[31].

وهذا ابن طفيل نفسه يضرب لنا مثلا عن ذلك بل يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك في تصنيفه للبشر ولا يقيم للعامة وزنا، بل أهل النظر أنفسهم مراتب ودرجات وقد بين الفرق بين الذي يدرك ما بعد الطبيعة بثاقب نظره وفكره، والذي يدرك ذلك بالكشف والمشاهدة فيقول: "فتخيل حال من خلق مكفوف البصر إلا أنه جيد الفطرة، قوي الحدس... فنشأ منذ كان في

31 عبدالمالكمرتاض (القصةفيالأدبالعربيالقديم) دار الشركةالجزائريةللتأليف،ط1، 1969،ص 287.

بلدة من البلدان ومازال يتعرف أشخاص الناس بها، وكثيرا من أنواع الحيوانات والجمادات وشكل المدينة ومسالكها وديارها وأسواقها، بما له من ضروب الإدراكات الآخر حتى صار يمشي في تلك المدينة بغير وكيل... وكان يعرف الألوان وحدها بشرح أسمائها.

ثم بعد أن حصل على هذه الرتبة فتح بصره. فمشى في تلك المدينة كلها... فلم يجد أمرا على خلاف ما يعتقده... غير أنه حدث له أمران عظيمان أحدهما تابع للآخر وهما زيادة الوضوح والانبلاج واللذة العظيمة، فحال الناظرين الذين لم يصلوا إلى طور الولاية هي حال الأعمى الأولى، وحال النظار الذي وصلوا إلى طور الولاية هي الحالة الثانية"[32]

مهما يكن من أمر فإن مجاراة ابن طفيل لروح عصره جلية في نصه القصصي شكلا ومضمونا، وبقي لنا أن نسرد نظائر هذه القصة في الفكر الفلسفي العربي لنقف عند تلك التأثيرات الخفية التي يتناص فيها ابن طفيل مع كثير من النصوص والأفكار، والتي نجد لها ضلالا في البناء القصصي لهذا العمل الروائي ومن هذه النصوص ما استفاد منها ابن طفيل الرمز في تمرير الأفكار، ومنها ما أخذ عنها أسماء الشخصيات لشيوعها وتداولها على الألسنة كتسمية بطله بـ: (حي بن يقظان) والشخصيات المساعدة له بـ: (أسال) و(سلمان) وهي كلها أسماء مستوحاة من الفكر الأسطوري والفلسفي الضارب بجذوره في أعماق التاريخ الإنساني القديم، وسيتبين لنا ذلك من خلال سردنا هذه النصوص على اختلاف مشاربها وروافدها.

1. حي بن يقظان لابن سينا:

32ابنطفيل، (حيبنيقظان) ص 109.

تسرد لنا هذه القصة رحلة الإنسان في الحياة بمرافقة جوارحه وحواسه وغرائزه وأهوائه وذلك بقيادة مرشد حكيم وهو العقل، وخلاصة حي بن يقظان عند "ابن سينا" أن جماعة خرجوا طلبا للنزهة، وبينهم شيخ جميل الطلعة حسن الهيئة، مهيب قد أكسبته السنون والرحلات تجارب عظيمة، ويدعى هذا الشيخ الوقور "حي بن يقظان" وهو يرمز بهذا الشيخ إلى العقل الإنساني الذي اكتسب التجارب من السنين والتأمل في الحياة وقد سماه حيا لأنه يحمل صفات الحياة نموا وتطورا وتدرجا نحو الكمال والعرفان لا يعرف التوقف والجمود وقد نسب هذا المخلوق إلى الخالق انتسابا مجازيا ليزيده قوة وعصمة وهي كناية عن الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم والذي يهدي هذا العقل إلى سواء السبيل.

"وهذه الجماعة التي ترافقه هي الغرائز والشهوات والرغبات التي تهواها النفس"[33] أما المجادلة والحوار اللذان يدوران بين الجماعة والشيخ (العقل) فهما إشارة إلى الصراع والتنازع القائم بين أهواء الإنسان وغرائزه والعقل، تسأل الجماعة الشيخ عن علم الفراسة الذي بواسطته تعرف الأمور المجهولة انطلاقا من مقدمات بديهية، فيجيب الشيخ بأن هذه المصاحبة التي تعجب الإنسان ما هي إلا مصاحبة لأصدقاء السوء والتي تشبه الشيء بشيء آخر زورا وبهتانا وذلك بتغليط الناس، وهو عمل لا يصدر عن عقل وحكمة، ويواصل الشيخ حديثه محذرا من هذه الحواس التي ترافق الإنسان.

إن هذا الذي عن يمينك أهوج والذي عن يسارك قذر وشره قرم شبق لا يملأ بطنه إلا التراب، وإن هذه القوة ملتصقة التصاقا كبيرا ولا يبرء

33مصطفىغالب (فيسبيلموسوعةفلسفية) منشوراتدارمكتبةالهلال،ط5، 1983،ص 75.

الإنسان منها إلا غربة تأخذها إلى بلاد لم يطأها من قبل أمثاله، وإذا لم تطق تلك الغربة فليس لك إلا أن تفرض عنهم قوتك وتبسط عليهم سلطانك وإياك أن تمكنهم من قيادتك.

وهو يرمز بالذي عن اليمين إلى القوة العصبية وبالذي عن اليسار إلى القوة الشهوانية، ثم هو يعترف بأن هذه القوى لا يمكن التخلص منها إلا بموت الإنسان وانتقاله إلى العالم الآخر حيث يبطل سلطان هذه الحواس.

وختاما يجعل ابن سينا من العقل مرجعا أساسا لبلوغ الكمال الإنساني إذ به يهتدي الإنسان إلى الحقائق العليا والأفلاك العليا التي هي العقول التسعة، ثم علة العلل وهو العقل العاشر.

وإن نحن تتبعنا هذين العملين القصصيين تبين لنا اشتراكهما في الدلالة العنوانية التي تحيلنا على التداعي الموضوعي، والذي يهدينا في نهاية المطاف إلى استعراض سيرة المعرفة الإنسانية، والتي يكون فيها العقل هو سيد الموقف، والذي لا معقب لكلماته.

فحي بن يقظان يرمز في كلا الأثرين إلى العقل الفعال الصادر عن خالقه ومبدعه الحي القيوم الذي نفى عن ذاته المتعالية الغفلة والسِّنة والنوم باليقظة تأكيدا للكمال المطلق، والإحاطة بكل شيء علما، وقد أشار القرآن إلى ذلك في قوله تعالى: «الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم»[34]

2 . سلامان وأبسال لابن سينا:

34لبقرة، 255.

وهما أخوان شقيقان يدعى أحدهما "سلامان" والآخر "أبسال"، وقد كان "أبسال" الأخ الصغير جميل الوجه، طيب السريرة، عاقلا متأدبا عفيفا شجاعا، وقد عشقته امرأة "سلامان" الأخ الأكبر، وحتى تحقق منه مآربها اقترحت عليه أن يتزوج من أختها وكانت قد دبرت مكيدة فشغلت مكان أختها في ليلة الزفاف وأطفأت الأضواء حتى لا ينكشف أمرها، ولما تقدم "أبسال" لعروسه لاح له برق فأبصر وجهها وعرف بأنها زوجة أخيه، فاستغرب الأمر وخرج من عندها بعد أن نجا من مكيدتها، ترك "أبسال" بلدته وسخر نفسه للحروب والفتوحات في مشارق الأرض ومغاربها حفاظا على ملك أخيه ولما عاد وجد زوجة أخيه لا تزال عالقة به، ولما رفضها اتفقت الزوجة الشريرة مع طابخة وطاعمة لتدبير مكيدة أخرى، فوضعتا السم في الأكل فأكله دون علم فمات، ولما علم أخوه بموته حزن حزنا كبيرا واغتم واعتزل الناس وظل يناجي ربه فأوحى إليه حقيقة الأمر فعمد إلى معاقبة زوجته بمثل ما قامت به من جزم وكيد، فأحضر الطابخة وزوجته وسقاهما السم.

وقد اجتهد الشراح والراسخون في تأويل الرموز وأجمعوا على تفسير رموز هذه القصة بقولهم أن شخصية "سلامان" هي مثل للنفس الناطقة، وشخصية "أبسال" هي رمز للعقل النظري المترقي إلى مستوى الكمال، كما أن امرأة "سلامان" تمثل السلطة البدنية عن طريق الشهوة والغضب، أما رفض "أبسال" للوقوع في الخطيئة هو إشارة إلى ميل العقل وانجذابه إلى أصله، والبرق اللامع والتنبيه الإلهي وبزوغ الحق، أما الفتحات فهي رمز لاطلاع النفس على الملكوت والعالم العلوي.

وهكذا تتحول شخصيات هذه القصة إلى رموز وطلاسم لا يقدر على فكها وحلها إلا الراسخون في التأويل والتحليل، وقد أشار ابن سينا

صراحة في تعقيبه على هذه القصة بقوله: فإذا قرع سمعك فيما يقرعه، فسرد عليك فيما تسمعه قصة "سلامان" و"أبسال"، فاعلم أن "سلامان" مثل ضرب لك، وأن "أبسال" مثل ضرب لدرجتك في العرفان إن كنت من أهله، ثم حل الرمز إن طقت[35]

إن التناص الشكلي في هذين العملين جلي وواضح إذ نجد طريقة التبليغ والتعبير عن الأفكار الفلسفية يظل رهن التقنع والترميز والإيحاء مع نسب وإسناد الأدوار البطولية إلى شخصيات مقتبسة الأسماء من الموروث القصصي التليد، وهي الأسماء التي تسبح في المخيلة الجمعية والعالقة باللاشعور والمعروفة من دون سابق تقديم، إذ أن شخصية كل من "سلمان" و"أبسال" تستهوي العامة بأحداثها الغريبة والخاصة بأفكارها المثيرة وقد جعلتها هذه الميزة تكتسب شعبية كبيرة في الأوساط القصصية.

3. سـلامان وأبسـال ذات الأصل اليوناني:

هي قصة فلسفية أخرى يقال: إنها ذات أصل يوناني ترجمها حنين بن إسحاق وتروي قصة ملك من ملوك اليونان (هرمانوس بن هرقل) الذي كان لا يحب معاشرة النساء وأراد أن يكون له خلف وولد من دون أن يقارب امرأة فأشار عليه حكيم من حكمائه أن يأخذ شيئا من ماء حياته ويضعه في إناء ويتكفله بالرعاية والعناية في مكان على شروط طبيعية كان الحكيم قد حددها وبعد أمد تولد لديه مولود فسماه "سلمان" وجعل رعايته لمرضعة جميلة في الثامنة عشرة من عمرها وكانت هذه المرضعة تدعى "أبسال"، فأحاطت المرضعة "أبسال" بالولد رعاية ولطفا وحنانا، فتعلق بها الولد واتخذها خليلة

35محمد غنيمي هلال (الأدب المقارن)، دار العودة بيروت، ط5، 1961، ص 234.

لا يفارقها ثم عشقها وكان أبوه قد لاحظ شدة تعلقه بها فنصحه بمفارقتها إلا أنه لم يطق لها فراقا، فلجأ الملك إلى تدبير مكيدة للمرضعة "أبسال" إلا أن الولد "سلمان" تفطن للمكيدة فأبطلها بالهروب مع أبسال" إلى ما وراء بحر المغرب، ففكر الملك في طريقة يعكر بها صفو حياتهما فبتدبير الحكيم أبطل مقدرتهما الجنسية فبقيا في عذاب وألم وحسرة من شدة الشوق إلى بعضهما، وقد استحال التواصل بينهما، أسف "سلمان" مم فرط منه تجاه والده ورجع إلى أبيه معتذرا إليه فاشترط عليه والده مفارقة أبسال إلا أن سلمان لم يستجب لشرط والده ورمى نفسه و"أبسال" في البحر فغرقت "أبسال" ونجا "سلمان" ! فوقعت عينه على زهرة فأعجب بمنظرها فسلا ونسي "أبسال" وشفي من ولعه بها.

وبعد أن عاد إلى رشده اعتلى عرش أبيه وأمر بكتابة قصته ومغامرته ورحلة عذابه وجعل في ختام هذه القصة عبارة جاء فيها: إن طلب العلم والملك من العلويات الكاملات، وإن الناقصات لا تعطي كاملا.

ويورد محمد غنيمي هلال شروحا لرموز هذه القصة عن نصرالدين الطوسي فيقول:

"والملك هو العقل الفعال، والحكيم هو الذي يفيض عليه مما فوقه، و"سلمان" هو النفس الناطقة، فإنه أفاضها من غير تعلق بالجسمانيات، و"أبسال" هي القوة البدنية الحيوانية، وعشق سلمان لأبسال هو ميلها على اللذات البدنية، وهربهما إلى ما وراء البحر المغرب انغماسهما في الأمور الفانية البعيدة عن الحق، وإلقاء نفسهما في البحر تورطهما في الهلاك، وخلاص سلمان رمز البقاء الروح بعد البدن، وإطلاعه على صورة الزهرة رمز

لالتذاذ النفس بالابتهاج بالكمالات العقلية، وجلوسه على سرير الملك وصول النفس إلى كمالها الحقيقي"[36]

ومما لا شك فيه أن ابن طفيل قد تناص مع هذه القصة في كثير من الأمور بدءا من أسماء الشخصيات سلمان وأبسال، ووقوفا عند حادثة التولد غير الطبيعي والخرق لسنن التولد المألوفة إذ أن تولد حي بن يقظان بطل قصة ابن طفيل من تربة انتفخت، ثم أعطت مولودا بشريا من غير رحم امرأة، ومن غير مخاض لا يكاد هذا التولد يختلف عن تولد سلمان بن هرمانوس من غير رحم ومن غير مخاض كذلك، ومنه يتبين لنا كيف عطل النموذجان القصصيان ظاهرة طبيعية وأجرياها على خلاف سننها، وهذا بدع من التصور أو هو تصور فوق العادة.

رابعا:ابن طفيل والتفكير الميثولوجي:

لم يكن ابن طفيل الفيلسوف الإسلامي الوحيد الذي عالج أفكاره العقلانية مستخدما القصص الرمزي الخيالي الأسطوري كما لم تكن فكرة اللجوء إلى العالم البريء عالم المثل أو بالأحرى عالم الطبيعة العذراء من أجل تحقيق ما عجزنا عن تحقيقه في الحياة الاجتماعية التي تزدحم بالتناقضات والصراعات، بل إن التعبير عن الأفكار وبسطها عن طريق التجريد والتصور هي طريقة الفلاسفة السابقين من أمثال الفارابي وابن سينا وإخوان الصفا وغيرهم من أصحاب العقول الكبيرة الفاعلة في الأفكار والمذاهب والمعتقدات كأفلاطون أبو الفلسفة الوضعية جمعاء. وقد عمد كل

36محمد غنيمي هلال (الأدب المقارن) ص 232.

هؤلاء إلى بسط تصوره حول الحياة المثلى في شكل مدن فاضلة وجمهوريات طوباوية ظلت رهن التنظير ولم يكتب لها التجسيد على أرض الواقع.

ولما عجز بعضهم عن تحقيق هذه التصورات المثلى للحياة ومجرياتها لجأ إلى فن الأساطير يطرق أبوابه عساه يستجيب لما يصبو إليه، ذلك لأن الأسطورة تخترق بخيالها كل الحدود وتتخطى كل الحواجز فتجعل الصعب سهلا والمستحيل ممكنا، وقد عرفت هذه الأساطير في شكل روايات وملاحم وقصائد جسدت هذه الأحلام والأفكار الخيالية وبأساليب جد مثيرة لتجد في انتظارها فريق كبير من الناس هو أشد غرابة منها في تعطشه لسماعها أو قراءتها، وقد جبل البعض من الناس على حب الطابع المغامراتي والخيالي في سرد الأحداث والوقائع كما هو جلي في وقتنا الراهن حول بعض الأفلام الخيالية التي تنقل المتتبعين إلى عوالم جد غريبة وجد مثيرة.

وفي الآداب اليونانية القديمة سجل الشاعر هوميروس اسمه في سجل الأساطير والملاحم الطوباوية القديمة التي بحثت عن الحياة المفقودة والمغيبة وذلك من خلال الفضاءات الطبيعية البعيدة عن الاجتماع والعمران البشري فكان لهوميروس ثلاث أساطير، أولاهما أسطورة "بان" الطفل الذي تركته أمه للأقدار تفعل بها ما تشاء وذلك خشية من زوجها "هرمس"، وثانيها أسطورة الفتاة الإلهية، وثالثها أسطورة الولد اليتيم، هذا وقد حفل التاريخ اليوناني بالموروث الأسطوري الذي لا يعد ولا يحصى، وقد كان في معظمه يجسد صراع الإنسان مع الآلهة.

ولم يكن الأدب العربي بمنأى عن هذه الأساطير العابرة للأجيال والحضارات على حد تعبير محمد حسن عبد الله[37]إذ اقتحمت الأسطورة الفكر والخيال الأدبي ذلك لأنها تحمل تأشيرة العبور لما لها من تسويغ لكل سلوك أو تصرف تتعطل السنن أمامه، فلا تفك عقد بعض المواقف المتأزمة إلا بالطرح الأسطوري الذي يتحدى المألوف من الفعل والحدث.

فالتولد الطبيعي الذي أورده ابن طفيل حول حي بن يقظان لا يتماشى مع المألوف والمعتاد من الفعل والقول ولا مع التفسير العلمي للظواهر، فمن أين لابن طفيل هذا التصور، ومن أين له هذا التخيل؟

يزول التساؤل والعجب فور معرفتنا لتناص هذا الطرح مع الموروث الأسطوري القديم، وقد حفظت لنا إحدى الترهات قصة "تاجيس" «الولد الذي يخرج من التربة المتشعبة ماء أمام أنظار فلاح كان يقوم بحراثة أرضه»[38]

"فتاجيس" ينبعث من الأرض المنتفخة، ويخرج منها كما يخرج النبات بفعل الماء والحرارة، وكذلك أخرج ابن طفيل بطله من طينة متخمرة في أرض هي أعدل بقاع العالم مناخا، وهذا جائز في منطق الأسطورة والخرافة إن لم يكن ضرب من العلم اللّدني الذي لا يقدر العقل البشري على إدراكه طالما أن قدرات إدراكه جد محدودة.

وما القصة اليونانية التي أوردناها من قبل منا ببعيدة، فقد علمنا كيف حصل الملك على مولود دون مقاربة أو معاشرة، بل دون أن يمر عبر رحم امرأة كما هو سار في سنن الخلق والإنجاب.

37عمر فروج (ابنطفيل وقصة حيبنيقظان)،دار لبنانللطباعةوالنشر،ط1، 1982،ص 232-233.

38محمد حسن عبدالله كتابيعنوان: أساطير عابرة للحضارات،دار قباء القاهرة،ط1، 2000،ص43.

ولنا أن نستعرض نموذجا من هذه الأساطير التي تكاد تكون مرآة عاكسة لأحداث قصة حي بن يقظان وقد حفظها لنا التاريخ الأدبي والتي يعود تاريخها إلى القرن الثالث قبل الميلاد.

أسطورة الصنم والملك وابنته:

هي حكاية ملك كان من أكثر أهل الأرض قوة وجاها وكان له من الحكماء ألفا ومن الفلاسفة ألفا ومن الوزراء ألفا ومن الخدم ألفا ومن الأزواج ألفا، وكان قد اتخذ هؤلاء من أشرف الناس نسبا إلا أنه حرم نعمة الإنجاب ولم تنجب له نساؤه على كثرتهن إلا بنتا واحدة وكان لكثرة حبها قد أطلق عليها اسم "الحياة" وكان كثير الانشغال بمستقبلها، فدعا الكهنة والمنجمين لاستكشاف طالعها ومعرفة غيبها وكان من أمر الكهنة أن زادوا في حيرة الملك حينما أخبروه بأن هذه الفتاة ستلاقي مصاعب كثيرة في حياتها، وسيكون لها طفل يواجه مغامرات صعبة ومدهشة، فاستعد الملك للحيلولة دون وقوع هذه الكارثة فاتخذ لابنته حصنا عاليا ومتينا وسخر لها من الخدم ما يؤمن سلامتها، وكانت هذه الفتاة على حظ كبير من الجمال والحسن إلا أن هذه الفتاة كبرت معها نوازع جد غريبة، فكانت كثيرة الميل إلى الرجال وحبهم، فتعلق قلبها بأحد الفرسان وهو ابن لأحد الوزراء وكان يدعى "شمسا" فسعت إليه وهددته بالحرق إن هو لم يستجب لرغباتها، فامتثل الفارس "شمسا" لأوامرها فحملتك منه مولودا، ولما خشيت من الفضيحة جعلته في صندوق من خشب ووضعت معه حجرا من الأحجار الكريمة وكانت قد سرقته من والدها الملك، ولما ألقت المولود في البحر رفعت يديها إلى السماء وتوجهت إلى ربها بهذا الدعاء: «أيها الموجود الأحد، أيها العظيم الجبار، يا خالق الأشياء خلقته على أجمل وجه في ظلمة أحشائي، وقدرت مصيره قبل

خلق العالم، خذه لرحمتك، ودعه أمانة لديك، أنت الذي لا يهن ولا يضعف».

وحملته أمواج البحر ورمت به على شاطئ جزيرة فيها كل الثمرات والمخلوقات إلا المخلوق البشري، وفي الصباح صاح الولد بكاء فالتفت الحيوانات حوله فمالت إليه ضبية كانت قد فقدت وليدها فكانت تقترب منه وترضعه من حليبها ولم تكن لتتركه حتى تمكنت من نقله إلى كهف مجاور وفيه تربى حتى بلغ أشده. وفي هذه المرحلة بدأ يتدبر فيما حوله من كائنات ويتأمل فيما خلقه الله من مخلوقات فانبهر لما كان يشاهده من عجائب السماوات والأرض وما بينهما.

وكان أول درس تلقاه في حياة الغاب هو الدفاع عن النفس لما كان يلاقيه من عدوان بعض الحيوانات، وكان مما شاهده من المناظر التي لفتت انتباهه طائر ينقض على سمكة فيختطفها إلا أنها سقطت منه ونجت فأسرع الولد نحوها فأخذها فشق بطنها، فوجد ببطنها سمكة صغيرة فشق بطن السمكة الصغيرة فوجد بمعدتها سمكة صغيرة أيضا، فشق بطنها كذلك فوجد فيها دودة فتوصل إلى نتيجة مفادها: أن في كل واحد من هذه المخلوقات نزوعا إلى العدوان بقدر ما تسمح به قوته.

ثم أن ما ينطبق عن الأسماك ينطبق عن الحيوانات، فقد رأى أسدا يهاجم ذئبا، والذئاب تهاجم كلبا، والكلب يهاجم ديكا، والديك يهاجم عنكبوتا، فتعلم أن الجائع لا يخشى شيئا، وأن الضعيف مهزوم أبدا، ومن خلال هذه الملاحظات تعلم كثيرا من الأشياء، فاتخذ لنفسه مآمن

تقيه العدوان ولجأ إلى الحيل التي بها يفرض سيطرته على ما كان مفترسا من الحيوانات، كما سخر كثيرا منها لخدمته، وظل يطارد الحيوانات

العدوانية حتى تبرمت منه وضاقت بها البراري بما رحبت، فشكت أمره إلى الأفعى سيدة الغاب وقاضيها، فلما استوضحت الأفعى الأمر قيل لها أن هذا المخلوق لا ينتمي إلى فصائلنا وأنه غريب عن طباعنا وإنا له لكارهون، طلبت الأفعى وصفا له، فقيل له إنه مخلوق غريب، وإنه لمتناسق الخلقة، يستطيع الوقوف على قدمين، وله رأس مستدير، ويدان قادرتان على بلوغ كل شيء، فقالت لهم الأفعى: هذا المخلوق هو سيدكم الطبيعي والذي تجب عليكم طاعته، وإنه من نسل آدم، ولقد أعطاه الله العقل والعلم والحكمة وكل الفنون، وله القدرة على إثبات الحقيقة وإخفاء الخطأ.

شكرت الحيوانات سيدها على حسن المشورة، وطلبت منه أن يكون سفيرا لها على أرض الجزيرة ووسيطا بينها وبين الحيوانات كافة، وفي هذه الأثناء كان ملك الجزيرة المجاورة قد تفقد الحجر الكريم فلم يجده وتبين له أنه قد سرق، فأقسم وهو غاضب أن يقتل الناس جميعا إن هو لم يعثر على الحجر الكريم، وتأكيدا لذلك قام بقتل ستة آلاف رجل وامرأة، وفي هذه الأثناء مات وزيره الأكبر، وورثه ابن "شمس" وكان الملك قد رأى فيه فطنة وذكاء فأورثه منصب أبيه، استيقظ الملك على حلم رآه في المنام فاحتار لرؤية ابن الوزير الجديد وهو يتربع العرش ويتقلد تاج الملك المرصع بالجواهر وبجانبه ابنه وفي رقبته الجوهرة المفقودة، ورأى أنه كان يقبل هذا الولد بحرارة كبيرة، ولما استدعى الملك كل الكهان والمنجمين للنظر في هذا الحلم المرعب، أبلغوه أن الولد الذي رآه إنما هو محتال آفاق وإنه خدعه في أعز الناس لديه، وإن ابن المخادع سوف يصبح ملكا، وسوف تبقى ذكراه قورنا طويلة، هنالك أمر الملك بالقبض على الوزير "شمس" وعلى كل أتباعه وأمر بقتله حتى يكون عبرة لغيره، وبه يتفادى شر ما رآه في المنام، لكن رجال البلاط

رأوا في قتل الوزير الأكبر أمرا جللا، ولم يقدم عليه ملك من قبل، فأشاروا على الملك أن ينفيه من الجزيرة إلى جزيرة مجاورة.

فوضع الوزير "شمس" في قارب وألقي به في البحر فأخذه الموج إلى الجزيرة التي يعيش فيها ابنه، وشاءت الأقدار أن يلتقيا ويبصر الوزير المنفي الجوهرة المفقودة معلقة على رقبة الولد المسيب، واستنكر في بداية الأمر كل منهما الآخر إلى أن أمنا شر بعضهما فتآلفا وتقاربا، وتعلم الولد المسيب اللغة على الوزير المنفي وأفضى كل منهما إلى الآخر، وسأل الوزير الولد عن معرفة الله فأجابه وأبدى الولد رغبته في الذهاب إلى الجزيرة معه، وعنت لهما على البعد سفينة فتوسلا إلى بحارتها أن يأخذوهما معهم ففعلوا.

نزل الرجلان بأرض قوم وشرعا يعلمان الناس حقائق الدين بعد أن تعلما لغتهم، ولقد شاع خبرهما حتى بلغ الملك فأمر بإحضارهما، فلما مثلا أمامه رأى الجوهرة المفقودة معلقة في رقبة الولد المسيب، فأدهشه ما رأى، فتأكد له أن الولد هو حفيده من ابنته وأن الرجل المرافق له هو وزيره، فقال هذا تأويل رؤياي، وجاءت ابنته فتعرفت على زوجها وولدها، فتنازل الملك عن ملكه لحفيده.

إننا لا نختلف مع أحد حين نؤكد مدى تقارب أحداث هذين العملين القصصيين، إذ أن أوجه التشابه في حياة البطلين كثيرة، فقد تداخلت الوقائع والأخبار وامتزجت الحقيقة بالأساطير وتلاقت الأزمنة وتزاحمت بتزاحم السرد بنوعيه، الترسلي والقصصي، و"اتصل التاريخ بالغيب والمعلوم بالمجهول والدنيوي بالأخروي والمقدس بالمدنس[39]، فمسرح الأحداث وكأنه

39محمد غنيمي هلال (الأدب المقارن) ص 232.

واحد، وقد اختيرت الجزر النائية والمعتدلة الأجواء مسرحا يأوي هذين الولدين، وقد كان تأمين حياة الولدين بكيفية واحد، بل تركت الأقدار تفعل فعلها وبكيفية خارقة للعادة، حتى لا يتسنى للسامع أو القارئ أن يسأل عن كيفية تسويغ نجاة الولدين .

خاتمة

خلصت الدراسة إلى جملة نتائج هذه أهمها:

1 . استفادة ابن طفيل من الثقافة الدينية والفلسفية والصوفية التي كانت رائجة في عصره في إبداع هذا النوع من القصص الفلسفي.

2 . فضل ابن طفيل أن تكون بداية النشأة لبطل قصته حي بن يقظان في هذه الحياة بمعزل عن تجارب إنسانية سابقة، تلزمه بنمط جاهز من الحياة على مستوى الاعتقاد أو التفكير أو السلوك؛ كي يتمثل من خلال حي بن يقظان حياة آدم في بداية الخلق، لتكون تجربة ماثلة للعيان نستوعبها بالعقل تعضيدا لما وصلنا بالنقل.

3 . نشأ حي بن يقظان ـ بحكم العزلة ـ حياة فطرية، تشبه حياة الملائكة في عالم الملكوت، فكان له من صفاء الروح والذهن ما جعله يرتقي في مقامات المعرفة التي آلت به إلى توحيد الله، لكن هذا المقام لم يمنحه الكمال الذي يغنيه عن نظرائه في الخلق، فكان لزاما عليه أن يتعلم ما كان يجهله في أول تواصل له جمعه بواحد من أبناء البشر (أسال).

4 . تصرف ابن طفيل في وقائع القصص القرآني من حيث التعاقب الزمني؛ فنحن نعلم أن آدم يمثل بداية الخلق وموسى جاء من بعده، لكن ابن طفيل ـ ومن أجل بناء الحبكة الفنية ـ استعار لحي بن يقظان قصة موسى الرضيع كي تكون سببا أو مقدمة تسبق تمثل تجربة آدم في تلك الجزيرة المعزولة.

5 . حاول ابن طفيل البحث عن أصل المعرفة فتوصل إلى تحديد مراحلها ومستوياتها؛ فأول مستوياتها وأبسطها هي المعرفة الحسية، لتليها المعرفة العقلية، ثم المعرفة الباطنية (العرفانية).

6 . قد تكون المعرفة في نظر ابن طفيل لَدُنَيَّة؛ أي من لدن الله عز وجل، وقد تكون ذاتية بما أودعه الله في الإنسان من نعمة العقل والتفكير والحواس... لكن في كل الأحوال مهما بلغ الإنسان من المراتب والمقامات لا مناص من العلم الحصولي الذي يناله البشر بعضهم عن بعض.

7 . مجاراة ابن طفيل لروح عصره جلية في نصه القصصي شكلا ومضمونا، حيث وظف في قصته نظائر لها من الفكر الفلسفي، ومن الأساطير القديمة على اختلاف مشاربها وروافدها، وهو بذلك يعتمد الترميز والإيحاء في التعبير عن فلسفته.

ببليوغرافيا:

القرآن الكريم

1 . حسنمحمدحماد،تداخلالنصوصفيالروايةالعربية،الهيئةالعامةللكتاب،مصر، 1998.

2ابنطفيل،حيينيقظان،تحقيقوتقديمفاروقسعد،منشوراتدارالآفاقالجديدةبيروت،ط1، 1976.

3عبدالمالكمرتاض (القصةفيالأدبالعربيالقديم) دارالشركةالجزائريةللتأليف،ط1، 1969.

4 عمرفروج (ابنطفيلوقصةحيينيقظان)،دارلبنانللطباعةوالنشر،ط1، 1982.

5 محمدحسنعبداللهكتابهبعنوان: أساطيرعابرةللحضارات،دارقباءالقاهرة،ط1، 2000

6 محمدخيرالبقاعي، (تلقرولانبارتفيالخطابالعربي)،عالمالفكر،سبتمبر 1998،العدد 01

7 محمدغنيمهلال (الأدبالمقارن)،دارالعودةبيروت،ط5، 1961.

8مصطفىغالب (فيسبيلموسوعةفلسفية) منشوراتدارمكتبةالهلال،ط5، 1983.